

مفهوم الطمأنينة



«بعض الأسماء والأوصاف سهلة ولطيفة، ولكن استحصالها ليس بالسهل، فمن يا ترى يعيش الطمأنينة في هذا العالم الذي يعجّ بالخوف والاضطراب؟

قال الراغب: "الطمأنينة والاطمئنان: السكون بعد الإنزعاج، قال تعالى: (ليطمئن قلبي) (البقرة/ 260)، (يا أيها النفس المطمئنة) (الفجر/ 22)، وهي أن لا تصير أمّارة بالسوء. وقال تعالى: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (الرعد/ 28)، تنبيهاً أن بمعرفته تعالى والإكثار من عبادته يُكتسبُ اطمئنان النفس..."(1).

الاطمئنان يعني الأمان، فكيف يمكن أن ننتقل بالنفس من عالم مضطرب إلى جزيرة آمنة مستقرة؟

وللحصول على الأمان، لابدّ من الإبتعاد عن مصادر الخوف والقلق، والتي يمكن أن تهاجم النفس الآمنة من كلّ صوب، لتحوّل بحرّها الهادئ إلى بحر لحيّ مضطرب الأمواج، فلا يستقر لها حال ولا بال.

ومصادر الإضطراب نوعان:

الأولى: فكريّة، وهي التي تسبّب الشكّ والارتياب.

والثانية: حياتيّة تسبّب الخوف والحزن.

وعلاج الأولى، أن تكون النفس متيقنة بالحق، فتطمئن ولا تشك ولا ترتاب.

ولا يحصل ذلك إلا بذكر الله، إيماناً وتصديقاً، ذلك أن الإنسان يُفكّر دوماً في الأسباب والمسببات.. "فكلاً" وصل إلى سبب يكون هو ممكناً لذاته، طلب العقل له سبباً آخر، فلم يقف العقل عنده، بل لا يزال ينتقل من كل شيء إلى ما هو أعلى منه، حتى ينتهي في ذلك الترقى إلى واجب الوجود لذاته - الله تعالى - مقطع الحاجات ومنتهى الضرورات.. فلمّا وقفت الحاجة دونه، وقف العقل عنده واطمأن إليه ولم ينتقل عنه إلى غيره.. فثبت أن الاطمئنان لا يحصل إلا بذكر واجب الوجود" (2)، وهو الله.

وهكذا فإن آلاف الأسئلة، بل ملايينها لا تنقطع ولا تتوقف ولا تصل إلى نتيجة إلا إذا آمن الإنسان بالله ولجأ إليه.. وبذلك يخرج من بين أمواج الريبة واضطرابها إلى برّ الأمان.

لنضرب مثلاً، إذا سأل سائل: ما مصدر المياه في الأنهار والمحيطات؟ أجيب بأنّ من المطر، فيقال: من أين يأتي المطر؟ قيل من السحاب، فمن أين؟ من بخار الماء، فما الذي يبخره؟ قيل حرارة الشمس، فمن أين؟ قيل من حريقها، فمن الذي جعل الشمس محرقة ولم يجعل الأرض كذلك؟ وهكذا تنهمر الأسئلة وتنهال، بلا نهاية، ما لم يأتي الجواب: (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء...) (الرّوم / 48).

(الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخّر لكم الأنهار * وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار) (إبراهيم / 32-33).

(الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً...) (غافر / 64).

(الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) (الزمر / 62).

... الله ... الله.

ثمّ ننقل من عالم الطبيعة إلى عالم الحياة الجارية وما فيها من حوادث سارّة وضارّة، مفرحة ومفرحة، مفاجئة وحزينة، لتأتي الأسئلة تترى وحيرى، فَمَنْ الذي يدبّر الوجود؟ مَنْ الذي يديره؟ مَنْ الذي ينعم على الناس ويوزّع بينهم الأرزاق؟ مَنْ الذي يهب لمن يشاء الذكور ويهب لمن يشاء الإناث؟ مَنْ الذي يهب الحياة؟ وَمَنْ الذي يأخذها؟

والجواب: هو هو، ولا جواب غيره: (الله الذي خلقكم ثمّ يرزقكم ثمّ يميّنكم ثمّ يحييكم.. هل من شركائكم مَنْ يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عملاً يشركون) (الرّوم / 40).

(الله الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر...) (الإسراء / 30).

(والله الذي خلقكم وما تعملون) (الصفّات / 96).

لقد قالها أحد فلاسفة الغرب: "لو لم يكن هناك إله لوجب أن نخلق إلهاً لأنّ الكون لا يستقيم له حال من غير إله".

وقال ربّ العزّة من قبل: (ولئن سألتهم مَنْ خلق السموات والأرض ليقولنّ الله...) (الزمر / 38).

وهكذا يجول العقل ويصول، ولا يهدأ له بال، ولا يستقر به حال، ولن يهدأ ولن يطمئن، إلا بالإيمان

باﻻ تعالى وذكره، ولكن يبقى هناك سؤال: كيف يمكن تدعيم الإطمئنان بالإيمان؟►

.....

الهوامش:

1- مفردات القرآن للراغب الإصفهاني.

2- التفسير الكبير للفخر الرازي، في تفسيره للآية (يا أيها النفس المطمئنة).